قالت العرب

لو العدو كان جبل / احنا اللى ح نزلزله / لو العدو إعصار / بايدينا ح نسلسله / لو كان عدوى شبح / دم الشهيد .. يقتله .. / قصص البطولة ياشعب / اللى ابتدت بينا / لو حتى يوم اختفت / رح تتولد فينا / دخلت خلايا القلب وسكنت الوجدان / ولسه نورها بيسعى فى دروب سينا

الشهداء

العدد 356 – السنة الرابعة عشرة – الأربعاء 15 يوليو 2026 م - 1 صفر 1448 □

مثقفون لكن خونة: لسان الهلباوى وفِعل الغربى

من صور حادثة دنشواي

أحد الفلاحين الذين تم الحكم عليهم بعد حادثة دنشواي، عند خروجه من المحكمة إثر الإعلان عن الحكم

كيف سقط نجم إبراهيم الهلباوي؟ وكيف كرهه الناس أكثر من سلطان الدعارة إبراهيم الغربي؟

حادثة "دنشواي" نقطة التحول فى تاريخ تعامل مصر مع الاحتلال .. رد فعل المصريين أعاد إليهم مصريتهم وثقتهم وفيها ولدت الصحافة المصرية الحقة

سواء بثلاثين من الفضة أو بخمسمائة؛ وسواء كان الخائن يهوذا أو الهلباوى أو قائدًا سيِّدًا؛ فلن يشفع له شيء، ولن يغير حُكم الجماعة الشعبية مغيرٌ، ولن يشفع لذى الصيت شيء، وسيسقط لا بيد شهير مثله بل بيد أرسلها الحق، فما حجم داود عليه السلام إلى حجم عملاق العماليق جالوت؟ وما حجم عبد الله بن مسعود حتى يصعد على جسد أبى جهل ويحز رأسه؟

●●●

"هأنذا ألقى فى ثقة بسلامي/ هأنذا أبرز لشهير أعرف إسمه/ ... من طرف حسامي/ وأكيل الضرب ولا أهدأ/ باسم الكلمة/ باسم الأرض الخضراء/ باسم قرى غنيناها باسم الإنسان" هكذا يقول حجازى فى قصيدته دفاع عن الكلمة.

●●●

تمثل حادثة "دنشواي" نقطة التحول فى تاريخ تعامل مصر مع الاحتلال، وفى تعامل العالم معها؛ بما يمكن وصفه: "بأن رد فعل المصريين على المذبحة المهينة أعاد إليهم مصريتهم وثقتهم، وأسقط كرومر ورجال كرومر وأصاب فى مقتل تطبيقه لاستراتيجية وكلاء الاستعمار – ولعل أوفى مصدر يمكن الرجوع إليه هو مقال الدكتور عماد الدين أبو غازى " "الخواجة أتل المره..." إذ علاوة على كونه موسوعيا بامتياز؛ فقد بنى بمنهجية دقيقة – فى هذه الحادثة ولدت الصحافة المصرية الحقة وصدق قول مصطفى كامل لأحمد حلمي: "أنت الصحفى الأول فى مصر" فى هذه الحادثة سقط نجمٌ لامع فى وحل الخيانة على يد صحفى صغير، لا لأنه تعاون مع المستعمر، ولكن لأنه أوهم الناس بكلامه أنه وطني؛ فيما أثبتت فعله أنه الخائن! كيف سقط نجم إبراهيم الهلباوي؟ وكيف كرهه الناس أكثر من سلطان الدعارة إبراهيم الغربي؟

●●●

"وكان من آيات شهرته أنها دخلت فى «النكتة المصرية»؛ فكان الذين يساومون القصابين (الجزارين) فى شراء لسان الذبيحة يقولون إذا اشتط عليهم القصاب فى الثمن: والله ولا لسان الهلباوي!" يذكر العقاد هذا فى درته الفريدة "رجال عرفتهم" الذى خصَّصه العقاد للحديث عن الصحفيين فى زمانه من مقال أفرده لإبراهيم الهلباوى (توفى ١٩٤٠) الذى أعيا منطقه جمال الدين الأفغاني.

أما إبراهيم الغربى (توفى – ١٩٢٤) فقد كان: "يشاهد كل مساء جالسا على مقعد خارج منازله بشارع عبدالخالق واضعًا ساقًا على ساق مرتديًا ملابس النساء ومنقبًا بنقاب أبيض، ويُخرج فى العادة يدًا مغطاة بالمجوهرات، كان لهذا الرجل سلطة مذهلة فى البلاد امتد نفوذه ليس فقط فى عالم الدعارة، ولكن أيضا فى محيط السياسة والمجتمع الراقى كان شراء وبيع النساء فى كل من القاهرة والأقاليم فى يد الغربي، ولم يكن قراره بالنسبة للسعر يقبل المناقشة، وصل نفوذه على كل بيوت البغاء درجة أن القوادين و البغايا نصبوه سلطانا على عالمهم وألبسوه تاجا ذهبيًا مرصعًا بالألماظ و الزمرد و الياقوت، و تربع على عرش تجارة الدعارة وحكم مملكته بديكتاتورية صارمة" بلغة رشيقة يصف مصطفى عبيد سلطان البغايا فى كتابه "ليل المحروسة" وبحصر علمى ممتدة صفحاته، مفزعة أرقامه يعرض عماد الدين هلال إمبراطوريته فى كتابه "البغايا فى مصر".

(١)

"محام أى محام، وخطيب أى خطيب! لقد يقف فى الجمهرة والناس أكثرهم على غير رأيه فيما يجول فيه، فما يزال يدور على مواطن إحساسهم يجسها من ههنا ومن ههنا فى رشاقة وخفة قول، ولطف شاهد، وبراعة نكتة، حتى إذا آنس من الآذان تطامنًا من جماح، واسترخاء بعد عصيان، هجم منها بكله على النفوس، فظل يهزها هزًّا، ويرجها رجًا. فما الفحل إذا هدر، ولا الليث إذا زأر، ولا البحر إذا زخر، بأشد صولة على الأسماع من الهلباوى يتدفق فى الكلام، فما يروعك من هذه الجماهير الواجمة إلا أن تراها، برغمها، قد أرسلت حناجرها بالهتاف، وبعثت أكفها بالتصفيق!" هكذا يصف البشريُّ الهلباوي.. رجلٌ يستطيع أن يغير الناس من حال إلى حال، صار الرجل ملء السمع والبصر، حاز الباشوية، وأصبح شيخ المحامين غير المنازع.. لكن دم "أم صابر" كان له رأى آخر، رأى محا تاريخ الزهو والعجب والإعجاب.

(٢)

فى ذلك اليوم.. تخرج مجموعة من الجنود ليصطادوا الحمام، ويصلون إلى مكان مثالي؛ جرن واسع يمتلئ بجبال التبن وأبراج الحمام الطينية؛ ولأن آلة (الدريس) وقتها كانت (النورج) فقد امتلأت الأرض بالقمح، وهكذا تتجمع الفرائس والصياد ككل شبر فى مصر وقتها، وكما أخذ الإنجليز القطن والقمح والبشر والشجر والحجر، رفعوا البنادق ليحصدوا الحمام، وإذ تخرج امرأة خافت من البارود أن يلضم شرره بجبال التبن فتحترق القرية، يوجه لها جندى رصاصه فتسقط "أم صابر" وترتفع الصيحة: "الخواجه كتل المره" وهنا كما يقول أحمد الحوفى فى كتابه (وطنية شوقي): "ووافى الخفراء فى الوقت نفسه ليفرقوا الجمع وينقذوا الضباط، فتوهم الإنجليز انهم يريدون بهم شرًا؛ فأطلقوا عليهم بندقياتهم؛ فأصابوا شيخ الخفراء واثنين آخرين فحمل الأهلون على الضباط الإنجليز جميعًا بالعصى والطوب؛ فأصيب واحد بكسر فى ذراعه، وأحاط الخفراء بهؤلاء الثلاثة وزميل رابع، وحجزوهم حتى جاء ملاحظ النقطة وأوصلهم إلى المعسكر" حتى هذه اللحظة لا قتلى إنجليز فى دنشواى فأين قتل الكابتن بول؟ يجيب الحوفى بأنه أصيب بضربة فى رأسه فانطلق هاربًا فى قيظ يونيه حتى وصل إلى سرسنا على بعد ثمانية كيلومترات، وحين سقط من الإعياء رآه فلاح مصرى فأسرع إليه بقلة ماء، وكان الإنجليز قد تحركوا من كمشوش، وظنوا أن "سرسنا" هى "دنشواي" فهشموا رأس الفلاح المصري! وشكلت محاكمة مخصوصة بلغ عدد المحاكمين فيها تسعة وخمسين مصريًا.

"هؤلاء السفلة وأدنياء النفوس من أهالى دنشواى قابلوا الأخلاق الكريمة للضباط الإنجليز بالعصى والنبابيت" من أقوال الهلباوي!

(٣)

كان من المنطقى أن يقف الهلباوى إلى صفوف المصريين، ويروى أنه حاول الذهاب إلا أن القطار تأخر؛ فعاد إلى بيته وأرسل أحد محاميه؛ وفى البيت يزوره رئيس الوزراء ويطلب منه أن يكون "المدعى العام للإنجليز" ويوافق!

فى مقالاته البديعة عن الهلباوى يتساءل محمد فرحات: هل ما جرى للهلباوى كان مصادفة؟ وفى تحليل شائق يقارن بينه وبين "سيزيف" ذلك الرمز الإغريقى الذى يدفع صخرة كى يوصلها إلى أعلى الجبل، لكنها تسقط، يختار فرحات أن ينحاز إلى "موجبات الظرف التاريخي" وكأن الهلباوى وسعد ويكن والعقاد كانوا ريشة فى مهب الريح، وأن جريمتهم كانت ما أورده أحمد بهاء الدين على لسان سعد زغلول فى كتابه (أيام لها تاريخ): "مصيبتنا أننا صدقنا"، يحضر سعد زغلول فى قلم محمد فرحات باعتباره المنافس الذى كان الهلباوى يحلم بأن يسبقه.. وأن هذا الشعور ربما هو ما قاده إلى قبول عرض وكيل المستعمر مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء، والد صفية زوجة سعد زغلول! وربما عزز هذا القبول المبلغ الضخم الذى تقاضاه: خمسمائة جنيه.

(٤)

"الاحتلال الإنجليزى لمصر حرر المواطن المصرى وجعله يترقى ويعرف مبادئ الواجبات الاجتماعية والحقوق المدنية" قال الهلباوي.

"هؤلاء السفلة وأدنياء النفوس من أهالى دنشواى قابلوا الأخلاق الكريمة للضباط الإنجليز بالعصى والنبابيت، وأساؤوا ظن المحتلين بالمصريين بعد أن مضى على الإنجليز بيننا خمسةٌ وعشرون عاماً، ونحن معهم فى إخلاص واستقامة" قال الهلباوي.

"إعدام الإمام حسن محفوظ وثلاثة قرويين وآخرون تراوحت أحكامهم بين الأشغال الشاقة المؤبدة (محمد عبد النبى مؤذن القرية زوج أم صابر المقتولة، وآخر) وخمس عشرة سنة وسبع سنين وسنة وآخرون بالجلد خمسين جلدةً" حكم المحكمة التى رأسها بطرس غالى وكان أحد أعضائها الثلاثة أحمد فتحى زغلول الشقيق الأصغر لسعد.

(٥)

لكن الصحفى الأول فى مصر رأى.. وكتب (يا دافع البلاء) قال: "كاد دمى يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة، فلم استطع الوقوف بعد الذى شاهدته، فقفلت راجعًا وركبت عربتي، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه، هذا ورجائى من القراء أن يقبلوا معذرتى فى عدم وصف ما فى البلدة من مآتم عامة، وكآبة مادة رواقها على كل بيت، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالي، حتى أن أجران غلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية، وتأكل فيها الأنعام والدواب بلا معارض ولا ممانع، كأن لا أصحاب لها، ومعذرتى واضحة، لأنى لم أتمالك نفسى وشعورى أمام البلاء الواقع الذى ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح".

وقال قاسم أمين: "رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبًا مجروحًا وزورًا مخنوقًا، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة، وهيئة بائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة، ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتومًا فى النفوس لم يجد سبيلًا يخرج منه فلم يبرز بروزًا واضحًا حتى يراه كل إنسان".

فقال برنارد شو: "إن كانت الإمبراطورية البريطانية تود أن تحكم العالم كما فعلت فى دنشواي، فلن يكون على وجه الأرض واجبٌ سياسيّ مقدسٌ وأكثر إلحاحًا من تقويض هذه الإمبراطورية وقمعها وإلحاق الهزيمة بها".

(٦)

طُرد كرومر آمر المذبحة والمعتمد البريطانى عن مصر، وشيعه المصريون بما أنطق أحمد شوقى (الذى رفض قبول رواية عذراء دنشواي) بقوله: لمَّا رَحَلتَ عَنِ البِلادِ تَشَهَّدَت... فَكَأَنَّك الداءُ العَياءُ رَحيلا.

انتهى ذكر أحمد فتحى زغلول.

قُتِل بطرس غالى على يد إبراهيم الوردانى الذى قال: "إذا كنا نسينا الإنجليز فإن المصريين الذين باعوا أهلهم لم ولن ينسى جريمتهم أحد" وحين أعلن الإنجليز موعد إعدامه، وتجريم ذكر اسمه أو حمل صورته، غنى له الناس فى الشوارع: "قولوا لعين الشمس ما تحماش... لحسن غزال البر صابح ماشي"، ورغم أن القتيل – وفقًا لكتاب الكنائس فى مصر الصادر عن المركز القومى للترجمة" بُنيت فوق مدفنه الكنيسة البطرسية، ونقش على تابوته بالعربية والفرنسية" الله يعلم بأننى لم أفعل شيئًا يضر بلادي"!

أما الهلباوى فقد عاش يتجرع كما قال يحيى حقي: " العذاب علقمًا وصبه كأسا بعد كأس.. سنين طويلة تكاد تكون هى عمره كله" رغم أنه لم يترك فرصة إلا حاول تكفير خطيئته فقد تطوع للدفاع عن البطل إبراهيم الوردانى، وعن أحمد حلمى الصحفى الذى كان مقاله "يا دافع البلاء" هو الصرخة الأولى فى البرية ليتداعى المصريون لحماية دمهم الحرام، وقَبل الساسة الهلباوى بعدما قدم، لكن المصريين لم ينزلوه عن المشنقة، وبقى "جلاد دنشواي".

(٧)

بعد فترة ظن الهلباوى أنه يستطيع الثأر ممن وقفوا ضده، فحاول مهاجمة الشيخ عبد العزيز جاويش لأنه وصفه بجلاد دنشواي، دون أن يدرك – كما أدرك محمد سعد عبد الحفيظ عنه – أن حافظ إبراهيم صوت الشعب وهو الذى سبق بعامين:

أنت «جلادنا» فلا تنسَ أننا ... قد لبسنا على يديك الحديدَا

●●●

"السيف إذا دخل المعركة الخاسرة تبلد، صار عصا فى كف الملحد" هل يقول لنا حجازى هنا أن حُسن الكلام ليس بشيء، بل هو كل الضرر إن جعل المثقف يبيع نفسه ويخون وطنه، إن أسكنه قصرًا محميًا، إن جعله يشعر أنه سيد دائمًا، إن أشعره أنه فى مأمن مهما فعل، هل سيلتف الناس حوله كما التفوا حول بينوشيه؟ هل سيعجبون به إعجابهم بجوبلز؟ هل غير استدعاء هتلر الاستعارى لبطولة ثلاثمائة جندى إسبرطى نهاية ستالينجراد أم ساقه إلى نهايته على ساحل النورماندي؟ فى النهاية لن يتحمل مصير عقاب الشعب حين صار جلاده، وسيتمنى مصير إبراهيم الغربى الذى ذكره هلال فى كتابه (البغايا فى مصر) نهاية الصفحة الرابعة والعشرين بعد المائة.

ابراهيم الغربي

إبراهيم الهلباوي

أحمد سراج

مسؤولية بطرس غالي عن الحكم

حين تم تأليف المحكمة المخصوصة للنظر في أحداث دنشواي ، عهد إلى بطرس باشا غالي الذي كان وزيرًا للحقانية بالنيابة برئاستها لغياب وزير الحقانية بالإجازة، وبقلمه وقع ذلك الحكم الجائر الذي يعتبر مثلًا من أمثلة البربرية والوحشية في أشد عصور الإنسانية ظلامًا، والذي أعدم بموجبه أربعة وجلد ثمانية أمام أنظار أهل دنشواي المفجوعين في أهلهم وعائليهم، عدا الذين زجوا منهم في غيابات السجون.

كانت رياسة بطرس باشا للمحكمة المخصوصة التي أصدرت الحكم مما أخذ به وليم عليه، ويقول المدافعون عن بطرس باشا في هذه المسألة: إن حكم دنشواي كان حكمًا سياسيًا أملته السلطة الإنجليزية التي أمرت بإرسال المشانق قبل أن يصدر، إذ أرادت أن تضرب بكل صرامة وحزم، وإنه كان صادرًا من أغلبية إنجليزية لأعضاء المحكمة، فلم يكن للأقلية الموجودة فيها – بحكم القانون – بُدٌّ من إقراره وتوقيعه، وبطرس باشا كان رئيسًا للمحكمة المخصوصة بحكم القانون الذي ألقى بهذه الرئاسة إلى ناظر الحقانية، فكان لا مفر له من الخضوع لرأي أغلبية الهيئة التي يرأسها والتي أصدرت ذلك الحكم الجائر.

وهذا الدفاع على ظاهره من الوجاهة لا ينهض حجة لتبرير عمل بطرس غالي إلا إذا كان هو معتقدًا عدالة الحكم الذي أصدره وإنسانية تنفيذه، ذلك بأن الرجل الذي يجلس رئيسًا لهيئة قضائية يعهد إليها بتطبيق العدل يجب ألا يخضع لصوت غير صوت الضمير ولاعتبار غير اعتبار العدل المجرد من كل هوى، فأما أن كانت المحكمة المخصوصة ليست هيئة قضائية وكانت صورة هزلية لعدل لا وجود له وإنما تملي السياسة أحكامه، فكان حريًا برجل له ما كان لبطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تخفيف الجور إلى أقل حدوده وألا يرضى هذا التنفيذ الذي بعث إلى قلب الإنسانية جمعاء رعشة اشمئزاز وتقزز واستفز في نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الإنسانية المهذبة ولا من الإنسانية المتوحشة في شيء.

كان حكم دنشواي خاتمة سيئة لحياة غالي واللورد كرومر، فعلى أثر صدوره وتنفيذه بدأت مكانة إنجلترا — كأُمّة مدنية ونظام — تتزعزع في نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم، وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملجأ العدالة في مصر، وكانت ألوف العرائض والشكاوى ترفع إليها طلبًا للإنصاف من ظلم الحكام بل من حيف القضاء؛ تراجع المتظلمون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والمجالد والمجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الإنسان في التحديق به، بل يولّي منه فرارًا ويمتلئ منه رعبًا؛ لذلك لم تطَق الوزارة الإنجليزية أن تؤيد عميدها في مصر فاضطر إلى الاستقالة في مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية إلى الموافقة على العفو – بفضل جهاد مصطفى كامل – عن مسجوني الدنشوايين.